- المحاضرة ٣

- خلق العالم:

يبدأ ابن ميمون بإظهار المعارضة القوية بين الفكر الفلسفي والفكر الديني وكانت المسألة الحقيقية هي معرفة ما إذا كان العالم قديما أو أنه له بداية بحيث يتقرر إذا كان قد وجد بالضرورة أو بواسطة فعل إرادي١. لقد قام ابن ميمون بعرض رأيان متباينان في مقدمات استهلها بالرأي القائل بالخلق من العدم :" خلق الله كل الكون من العدم التام والمطلق ومن قبل لم يكن هناك إلا الله ولا شيئ غيره فلا ملائكة ولا أفلاك... ثم خلق كل هذه الأشياء كما هي بإرادته الحرة، وليس من شيء، والزمان نفسه جزء من هذه الأشياء المخلوقة بما أنه يصاحب الحركة... والله كان موجودا منذ الأزل. وواضح تماما إن ابن ميمون مؤمن بهذا الرأي أي أنه يؤيد ما تذهب إليه العقيدة التي تعتبر حدوث العالم من أسسها٢.

أما الرأي الثاني فهو رأي الفلاسفة عموما والذي لا يتصورون أن يكون الله قد خلق شيئا من عدم كما أنه لا يمكن أيضا وفقا لهم أن يتحول شيء إلى العدم المطلق. وأساس نظرية أرسطو أنه لا يمكن لشيء مادي أن يخلق بلا مادة موجودة أصلا٣، والسماء الاولى عنده أي تلك التي تشمل الكون كله لا تخضع للوجود والعدم فالكون كله وجد منذ الأزل بنفس الصورة التي هو عليها الآن٤.

وحول هذه النقطة أي عدم الاتفاق التام بين الدين (الكتاب) والفلسفة لابد من الاختيار والمفاضلة لكن ما هو المعيار ؟

لقد اعتقد الفلاسفة قبل ابن ميمون انطلاقا من النقاش الدائر بين فلسفة الكتاب والفلسفة الإغريقية أنه لا بد من الأخذ بالحجج المستنبطة من النصوص الدينية وتأويلها أو الأخذ بالحجج التي تقدمها الفيزياء لكن ابن ميمون في موازنته بين الفرضيتين توصل إلى أنه لم تكن إحداهما فاصلة أو أهم من الأخرى فلا الفلسفة الاغريقية قادرة على إثبات أزلية العالم ولا النص الديني "في البدء خلق السموات والأرض" قادرا على إثبات الخلق من العدم كواقع لذلك يستدعي الأمر تأويل النص الديني والأخذ برمزيته داخل الفرضية الاغريقية فلا وجود إذن إلا لمعيار خارجي عن الدين وعن الفلسفة ويتعلق بالله الأسمى والأعلى والمفارق عن الطبيعة وهو بالضرورة الدينامية فوق الطبيعية التي تبرز الخلق من العدم٥.

---

[١] علي سامي النشار: الفكر اليهودي، ص ٢١٣.

[٢] زينب محمود الخضيري: أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى ص، ٢٨٦.

[٣] المرجع نفسه، ص، ٢٨٦.

[٤] المرجع نفسه، ص، ٢٨٧.

[5] Brice parain : P, 1031.

يقول الميموني :" فالذي أرومه أنا أن أبين أن كون العالم محدثا على رأي شريعتنا الذي قد بينته، ليس بممتنع وان تلك الاستدلالات كلها الفلسفية التي يبدو منها أن ليس الأمر كما ذكرنا، يوجد لتلك الحجج كلها وجه يعطلها ويبطّل الاستدلال بها علينا. فإذا صح لي ذلك وكانت هذه المسألة أعني قدم العالم او حدوثه ممكنة كانت عندي مقبولة من جهة النبوة التي تبين أمورا ليس في قوة النظر الوصول إليها... ترجيح القول في الحدوث على القول بالقدم وأبين أن كما تلزمنا شناعة ما في اعتقاد الحدوث، كذلك تلزم شناعة أشد منها في اعتقاد القدم"٦.

لقد خلق الله العالم بأن خلق أولا البداية "في البدء خلق الله السموات والأرض" وما هذه البداية إلا العقول التي تعطي الوجود للأفلاك كما تمنحها الحركة لكن كيف تصور ابن ميمون هذا الخلق الذي كان له بداية زمانية في رأيه ؟ هل هو خلق يتم دفعة واحدة و مباشرة أم هو خلق بواسطة الفيض ؟ ذهب إلى أن الملائكة المذكورة في الانجيل ما هي إلا عقول الأفلاك وهي تفيض عن العلة الأولى وتكون سلسلة من العقول تفيض كل منها عن الأخرى وتنتهي بالعقل الفعال مع تأكيده على أن وجود الأشياء و فسادها يرجع لإرادة الله تعالي أي أن لهذا الخلق بداية حددها الله بإرادته٧. يقول الميموني "وكما نبين قيل عن العالم من فيض الله وأنه أفاض عليه كل ما يحدث فيه، وكذلك يقال أنه أفاض علمه على الأنبياء المعنى كله أن هذه الأفعال من فعل من ليس بجسم وهو الذي يسمى فعله فيضا وهذه الاسمية أعني الفيض قد أطلقته العبرانية أيضا على الله تعالى من أجل التشبيه بعين الماء الفائضة٨ .

- **الأخلاق:**

الأخلاق عند الميموني مشروطة تقريبا بقضية التوفيق بين فلسفة أرسطو والدين اليهودي فقد عمل التأصيل للأخلاق من خلال أخلاق الكتاب المقدس والأخلاق الأرسطاليسية ثم تجاوزهما معا٩ فالمصدر الأول هو الكتاب والتقاليد الهيودية ذات القيمة المطلقة ومنشأ الأخلاق السامية للإنسان وكذلك النواحي التربوية للتوراة، كل هذا الجدل القائم بين الفضيلة والخطيئة قائم على تصور ديني للشر الداخلي في الطبيعة الانسانية والوجودية في صلته بالتصورات والآراء الأرسطاليسية الأخلاقية خاصة في اكتساب الفضائل العقلية والتي تبدو ظاهريا على أنها من الصعب أن تنسجم مع الأخلاق الدينية لكن يمكن أن تكون الأخلاق والمبادئ الدينية الشرعية محل تأويل بالمعنى الأرسطي وذلك بنور خاص هو المنهج الرمزي رغم أن الفلسفة الأرسطية

---

٦ موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، ص

٧ زينب محمود الخيضري: أثر ابن رشد، ص ٢٩٢.

٨ موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، ص٢٩٢.

9 Brice parain : P, 1031.

وحدها غير كافية لفرض هذا التأويل١٠، لذلك فإن أرسطو والنص الديني عاملان مساعدان ومؤقتان فقط في نظره إذ يستعملهما حتى لحظة قدرته على تخطيهما وهذا النوع من التسامي أو الترنسندنتالية هو السبيل لفهم الوحي ومقارنة نصوص الوحي ببعضها البعض ومرحلة بمرحلة لأن الوحي يتطلب الولوج إلى روحه ورسالته السامية إذ أن الوحي نفسه متعال عن الثنائية السابقة١١ .

لذلاك فالأخلاقية عنده تعبير عن الكمال الإنساني من نظام تأملي وروحي فهي ليست سوى وسيلة تسير نحو ذلك الكمال تفيد في تحرير الإنسان من سيطرة الشهوات وتخلق على هذا الوجه المناخ الذي لا غنى عنه لازدهار العقل فإن الحياة الدينا ليس لها سوى قيمة نسبية وبدون أن تبلغ حالة الزهد الحقيقي فإنها ترى في مثلها الاعلى في ذلك التجرد الذي يتلخص في الاتجاه الدائم نحو الله ولكن الاتحاد مع الله يكون بفضل المعرفة وهو طريق الحياة الأبدية للإنسان وهذه المعرفة السامية تتمثل أحيانا كإدراك للفعل الأخلاقي الإلهي الذي يستخدم من ثم كنموذج لفعلنا ولكن بصفة عامة إنها التقوى التأملية... ومعنى ذلك تبعية العنصر الأخلاقي للدين١٢.

فمن جملة أغراض الشريعة الكاملة إطّراح الشهوات والتهاون بها وكبحها بقدر الإمكان وأن لا يقصد منها إلا الضروري لأنها معطّلة لكمال الإنسان و تتبع مبرد الشهوة يبطل التشوقات النظرية ويفسد البدن، ويقضي على الإنسان قبل عمره الطبيعي له، ويكثر الهموم والتباغض فلذلك كان من لطف الله أن شرع شرائع تعطل تلك الغاية وهذا مقصد كبير من مقاصد الشريعة١٣.

- **أصل الشر:**

يقول الميموني:" فقد تبين لك أنه على كل رأي أنه لا يتعلق فعل الفاعل بعدم بوجه. وإنما يقال أنه فعل العدم بالعرض، وأما الشيئ الذي يفعله الفاعل بالذات فهو شيء موجود ضرورة أي فاعل كان، وإنما يتعلق فعله بموجود... فلتذكر ما قد تبرهن من كون الشرور إنما هي شرور بإضافة إلى شيء ما وإن كان كل ما هو شر في حق موجود من الموجودات فإن ذلك الشر هو عدم ذلك الشيء أو عدم حالة صالحة من حالاته، ولذلك تطلق القضية، ويقال الشرور كلها أعدام. مثال ذلك في الانسان، فإن موته شر وهو عدمه، وكذلك مرضه أو فقره أو جهله، شرور في حقه، وكلها أعدام ملكات١٤.

---

[10] Ibid, P, 103٢.
[11] Ibid, P, 1033.

[١٢] علي سامي النشار: الفكر اليهودي، ص ص ٢٢٢- ٢٢٤.

[١٣] إسرائيل ولفنسون: موسى بن ميمون، ص: ١١٥.

[١٤] موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، ص ٤٩٣-٤٩٤.

يقول الميموني أيضا :" وبعد هذه المقدمات يعلم يقينا أن الله عزوجل لا يطلق عليه أنه يفعل شرا بالذات بوجه أعني أنه تعالى يقصد قصدا أوليا أن يفعل الشر. هذا لا يصح، بل أفعاله تعالى كلها خير محض، لأنه لا يفعل إلا وجودا، وكل وجود خير. والشرور كلها أعدام لا يتعلق بها فعل إلا بالجهة التي بيننا بكونه أوجد المادة على هذه الطبيعة التي هي عليها وهي كونها مقارنة العدم أبدا كما قد علم. فلذلك هي السبب في كل فساد، وكل شر. ولذلك كل ما لم يوجد له الله هذه المادة لا يفسد ولا يلحقه شر من الشرور فتكون حقيقة فعل الله كله خيرا إذ هو وجود"١٥.

[١٥] المرجع نفسه، ص ٤٩٤.